

الانزياح على مستوى التركيب في الشعر الصوفي المملوكي

Shift at the installation level

Shift at the structural level in Mamlook Sufi poetry

Jamal Hamad Mutlaq
Jarad
General Directorate of
Anbar Education - Ramadi
Education Department
Dr. Firas Abdel Rahman
Ahmed Al-Najjar
professor
Anbar University_ College
of Education for Human
Sciences

جمال حمد مطلق جراد
المديرية العامة لتربية الأنبار- قسم
تربية الرمادي
د. فراس عبد الرحمن أحمد النجار
أستاذ
جامعة الأنبار- كلية التربية للعلوم
الانسانية

Jam20h2008@uoanbar.edu.iq

تاريخ القبول

تاريخ الاستلام

٢٠٢٢/١٢/٦

٢٠٢٢/١١/١٥

الكلمات المفتاحية: التركيب، الحذف، التقديم والتأخير، مكملات، السياق.

Keywords: syntax, omission, introduction and delay, complements, context

الملخص

إن التراكيب النحوية للبنية اللغوية تقوم على القانون الذي يتحكم بها، لكن عندما يريد صاحب النص الخروج عن هذا القانون، يكون النص قد لجأ إلى تعددية في المعنى ارتبطت بذلك الخروج، لاسيما أن هذا المستوى يضيف دلالات متعددة للنص الشعري، كونه بناء يشد بعضه بعضاً بتضافر فنون اللغة الموظفة لخلق البناء الكلي للنص والموضوع الشعري.

Abstract

The grammatical structures of the linguistic structure are based on the law that controls it, but when the author of the text wants to deviate from this law, the poets have resorted to a plurality of meaning associated with that exit especially since this level adds multiple connotations to the poetic text , a structure that pulls each other together in concert . language arts employed to create the overall structure of the text and poetic subject.

المدخل

لقد اهتم ((القدماء بهذه الصفة المخالفة التي نسميها اليوم الانحراف أو الانزياح لما لها من أثر في التركيب اللغوي في النص، ومن ثم فهي المسؤولة عن إثارة المتلقي من جهة، وانجاز صورة قادرة على التعبير عن مكونات الشاعر النفسية من جهة أخرى))^(١).

وقد نعت هذا الأسلوب الذي يخرج عن مألوف ما اعتاده الناس في أدائهم اللغوي المستعمل أو العادي ((بعده أوصاف قريبة من المفاهيم النقدية التي جاء بها المحدثون ليصفوا خروجات المبدع على ما هو مألوف في استخدام العناصر اللغوية، ويكاد يكون التوسع أو الاتساع من أكثر المسميات خصوصاً في مصنفات القدماء للدلالة على كل استخدام ينتهك النمط التعبيري المألوف، ويتخطى ما جرت العادة باستعماله))^(٢).

إذ تكون البنية في تشكيلها عدولاً من التركيب العادي إلى التركيب المعنوي غير المألوف، وهذا ما سنركز عليه في دراسة فاعلية المستوى التركيبي في الشعر الصوفي المملوكي، ومنه:

(١) من دلالات الانزياح التركيبي وجماليته في قصيدة الصقر لأدونيس، ١٦١.

(٢) الانحراف مصطلحاً نقدياً، ١٣٦.

- الحذف:

إن الحذف من القضايا المهمة في الانزياح التركيبي، فقد أشار ابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ) إلى فاعليته عند العرب فقال: ((وأعلم أن المحذوف في صناعتهم على ثلاث أقسام، الأول: محذوف لا يتم الكلام إلا به، فحذف لعلم المخاطب به، كقولك لمن رأيت يعطي الناس: (زيداً) أي أعط زيداً، فتحذفه وهو المراد، وأن أظهر تم الكلام به، ولكن حذفه أوجز. والثاني: محذوف لا حاجة بالقول إليه، وإن ظهر كان عيباً، كقولك: (أزيداً ضربته). والثالث: المضمرة، إذا أظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره، كقولنا: (يا عبدالله) وسائر المناديات، فهي منصوبة بفعل مضمرة تقديره: أدعو أو أنادي، وهذا إذا أظهر تغير المعنى وصار النداء خبراً، بعد أن كان إنشاءً))^(١).

وعليه يكون الحذف لغاية نصية ينطلق منها ويعود إليها، كالدائرة التي تعود إلى نقطة الانطلاق بصورة طبيعية، إذ الحذف له صورة في الكلام وليس وسيلة عادية لتشكيل البنى النصية، ومثال ذلك الشعر الصوفي في العصر المملوكي الذي زخر بهذه الجزئية من الانزياح، لاسيما أن الحذف في الشعر الصوفي يفتح النص على آفاق أخرى ومعاني وأهداف ومقاصد جديدة، وللحذف أنواع في الشعر الصوفي المملوكي وهي بالشكل الآتي:

أ- حذف المبتدأ:

ظهر في الشعر الصوفي المملوكي حذف المبتدأ أو الخبر في النص الشعري، وهذا الانزياح التركيبي بالحذف لم يكن اعتباطياً، بل عبّر عن معاني أخرى خفية تحتاج إلى تأويل واستنباط وإظهار للمتلقي.

لكن لابد ((للمنتهي عند الحذف من أن يكون على درجة كبيرة من الدراية بمواضعه والعلم الدقيق بوظائفه؛ حتى لا يفقد الصلة بالمتلقي، ولا تتكص الرسالة عن وظيفتها، فإذا أعوزه ذلك أسقط عمله في غياب من التعمية تبعد المتلقي عنه أكثر من أن تقربه إليه أو تجذبه نحوه، فالحذف بقدر ما فيه من مآثر ومحاسن بلاغية بقدر ما فيه من مزلق قد يقع فيها المبدع))^(٢)، من ذلك قول عفيف الدين التلمساني^(٣) (ت ٦٩٠هـ) في الحب الإلهي

(١) الرد على النحاة، ٧٩-٨٠.

(٢) لغة الخطاب الشعري عند جميل بثينة دراسة أسلوبية بنائية، ١٦٠.

(٣) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني عفيف الدين، شاعر كومي الأصل (من قبيلة كومة) تنقل في بلاد الروم وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح (القوم) يتبع طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله، واتهمه فريق برقة الدين والميل إلى مذهب

مستعملاً حذف المبتدأ^(١):

(البيسط)

شَهَدْتَ نَفْسَكَ فِينَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ كَثِيرَةٌ ذَاتُ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءِ
وَنَحْنُ فَيْكَ شَهَدْنَا بَعْدَ كَثْرَتِنَا عَيْنًا بِهَا اتَّحَدَ الْمَرِيءُ وَالرَّائِي

في هذا النص يلجأ الشاعر إلى وصف حبه الصوفي، مشكلاً جسراً للانتقال إلى هذا المعنى عن طريق مخاطبة النفس وتشكيل حضورها، وأداته في ذلك حذف المبتدأ، ففي تعبير (كثيرة ذات أوصاف) جعل (كثيرة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هي) وهذا الحذف كان لجعل أفق النص مفتوحاً في اتجاه التأويل وتفسير الرمز^(٢) ومعرفة أهدافه.

إذ الأوصاف المتعلقة بالمحبيب كثيرة لا يحدها حد ولا تنتهي إلى وصف معين، بل لا نهائية ولا محدودة، لاسيما أن الصوفي يتغزل بلغة الحب العذري، ليعكس الصورة المنيرة في قلبه، وهو ضياء الحب بن العبد وخالقه سبحانه وتعالى، منطلقاً من قوله تعالى: (يحبهم ويحبونه)(المائدة: ٥٤).

ولهذا حذف المبتدأ حتى يجعل الطريق أمام المعنى الصوفي مفتوحاً، وغير مقتصر على المعنى الإنساني الظاهر من النص؛ لأن (تركيب الكلمة مع الكلمة إذا كان لأحدهما تعلق بالأخرى على السبيل الذي به يحس موقع الخبر وتمام الفائدة)^(٣)، ويذهب تقي الدين السروجي^(٤) (ت ٦٩٣ هـ) إلى حذف المبتدأ .

النصيرية، وابنه الشاب الطريف أشعر منه مات في دمشق (ت ٦٩٠ هـ)، معجم تراجم الشعراء الكبير، ٢٣٦ / ١.

(١) ديوان عفيف الدين التلمساني، ٦٨/١.

(٢) الرمز: تعددت معاني الرمز لكن في أبسط تعريفاته هو ((الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة، التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية))، وهذا التعريف يتوافق مع الرمز الصوفي الذي يقوم على استعمال لغة للتعبير عن معنى آخر غير مرتبط بها، كما في لغة الغزل العذري التي تكون عند الصوفي وسيلة للتعبير عن الحب الإلهي، ينظر: الرمز التاريخي في شعر أمل دنقل، ١١-١٢.

(٣) شرح المفصل، ٢٠/١.

(٤) هو تقي الدين أبو محمد عبدالله بن علي بن منجد بن ماجد بن بركات السروجي ولد عام ٦٢٧ هـ بالشام في بلدة قريبة من حران اسمها سروج ، وإليها ينسب ومات بالقاهرة عن عمر يناهز ستة وستين عاماً في سنة ٦٩٣ هـ، والشاعر بهذا ينتمي إلى مجموعة شعراء دولة المماليك في مصر والشام، ينظر: ديوان تقي الدين السروجي ديوانه وما تبقى من موشحاته، جمع وتحقيق ودراسة، ١٢ وما بعدها.

فيقول^(١):

(الطويل)

تَفَقَّهْتُ فِي عِشْقِي لِمَنْ قَدْ هَوَيْتُهُ وَلِسِي فِيهِ بِالْتَحْرِيرِ قَوْلٌ وَمَذْهَبٌ
وَلِلْعَيْنِ تَنْبِيَةٌ بِهِ طَالِ شَرْحُهُ وَلِلْقَلْبِ مِنْهُ صِدْقٌ وَدُّ مَهْذَبٌ^(٢)

يستعمل تقي الدين في هذه النصوص حذف المبتدأ ليدل على النعم التي ترافق العبادات والتعلق بالخالق سبحانه وتعالى، ففي تعبير (صِدْقٌ وَدُّ مَهْذَبٌ)، جعل مهذبٌ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو)، إذ ((يظل الاسناد هو الرابطة بين المبتدأ والخبر حتى بعد دخول النواسخ عليهما، وقد تتغير المصطلحات في التحليل النحوي لكن الاسناد لا يتغير بينهما وذلك لأن البنية الأساسية في الجملة المنسوخة هي المبتدأ والخبر، وإن تغيرت المصطلحات الدالة عليهما وفقاً للتغيير الحادث))^(٣).

فإلى جانب أنه أراد ذكر كتاب (المهذب) أراد بيان أن العلاقة الخالصة بين العبد وخالقه، الخالية من النفاق وحب الدنيا تكون نتائجها التهذيب للروح والسكينة للنفس، وهذا المعنى أحيل إليه عن طريق حذف المبتدأ وجعل المعنى مفتوحاً على النعم المختلفة التي تصاحب الصوفي في مناجاته وعباداته وخلواته، ويقول ابن نباتة المصري الفاروقي^(٤) (ت٧٦٨هـ) في الرمز الصوفي مستعملاً حذف المبتدأ^(٥): (الكامل)

جِسْمٌ سَقِيمٌ وَلَا يَرَامُ شِفَاؤَهُ سَلَبْتُ سُودَا مَهْجَتِي سُودَاؤُهُ
عَجِباً لَهُ جَفْنَا كَمَا قَسَمَ الْهَوَى فِيهِ الضَّنَى وَبِمَهْجَتِي أَدَاؤُهُ

يستعمل ابن نباتة في هذه النصوص حذف المبتدأ للوصول إلى العذاب الذي يصيب الصوفي، والذي مثله في تعبير (جِسْمٌ سَقِيمٌ وَلَا يَرَامُ شِفَاؤَهُ) ف(جِسْمٌ) مبتدأ محذوف تقديره

(١) ديوان تقي الدين السروجي، ٤١.

(٢) التنبيه كتاب من كتب فقه الشافعية لأبي إسحاق إبراهيم الشيرازي المتوفى (ت٤٧٦هـ)، والمهذب كتاب من كتب فقه الشافعية لأبي إسحاق إبراهيم الشيرازي أيضاً.

(٣) بناء الجملة العربية، ١٢٣.

(٤) أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد الجُدَامِي الفارقي نسبة إلى قبيلة جُدَامِ العربية، ولد في شهر ربيع الأول عام (٦٨٦هـ) بزقاق القناديل بالقاهرة وتلقى العلم عن شيوخ عصره من حديث وفقه وآداب، تنقل بين مصر والشام، توفي سنة (٧٦٨هـ) في القاهرة ودفن بمقابر باب النصر، ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الكاملة، ٤ / ٢١٦.

(٥) ديوان ابن نباتة المصري الفاروقي، ١٠.

جسمي جسمٌ سقيمٌ، وهذا الحذف يشبه الحذف في قوله تعالى (صبرٌ جميلٌ والله المستعان) إذ التقدير (صبري صبرٌ جميلٌ).

فيتضح أنه يريد التأكيد والتببيه على أن صبره له أبعادٌ خاصة ومعاناة خاصة، فهو لا يرام شفاءه أتعبه الحب وسيطر عليه، ولهذا جعل التعبير مركباً من المبتدأ المحذوف والخبر المتعلق به، لاسيما أن المبتدأ كما يقول سيبويه ((كل اسم ابتدئ ليبنى عليه كلام...فالمبتدأ الأول والمبني ما بعده عليه))^(١).

ب- حذف الفاعل:

كان حذف الفاعل في الشعر الصوفي المملوكي من الأدوات التي التجأ إليها الشاعر الصوفي، لاسيما أن حذف الفاعل يكون في اتجاهين الأول ((الفاعل المؤول بمصدر صريح، والمقصود بالمصدر المؤول وقوع (أن) المفتوحة الهمزة الحرف المشبه بالفعل هي واسمها وخبرها موقع الفاعل ... وقد ينشأ المصدر المؤول من (أن) الحرف المصدر المختص بالدخول على الفعل المضارع الناصب له فـ(أن) والفعل المضارع ومعمولات الفعل ومتعلقاته يشكلون جميعاً المصدر المؤول))^(٢).

في حين الاتجاه الثاني ((يستتر جوازاً أو وجوباً، ومع ذلك قد يحذف الفاعل وجوباً لعارض طراً على الفعل، وذلك في حالة واحدة هي أن يكون الفعل مضارعاً مسنداً إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة وقد لحقته نون التوكيد فنقول: لتتجحنَّ أيها المجدون، فأصل الفعل هو لتتجحن+ن، حذف نون الرفع فالنقى ساكنان واو الجماعة والنون الأولى من حرف التوكيد فحذفت الواو التي هي الفاعل))^(٣).

والقرينة مهمة في حذف الفاعل، إذ ((قوة القرينة أمر مهم بنوا عليه كثيراً من الأساليب والأحكام اللغوية كقولهم علامة التأنيث في الصفات الخاصة بالمؤنث والتي لا يشاركه فيها الذكر، مثل: حامل ومرضع وحائض، كما يحذف الفاعل وعامله لداع بلاغي مع وجود القرينة التي تعين على ذلك))^(٤)، ويظهر حذف الفاعل في الشعر الصوفي

(١) الكتاب، ٢/٢٦.

(٢) الفاعل وأحكامه النحوية، ٢.

(٣) الجملة الفعلية بين النحو والدلالة دراسة تطبيقية في ديوان المتنبي، ٢١.

(٤) اختلاف النحاة في قضايا الفاعل ودلالاته وحلوله من خلال القرآن الكريم واللغة، ٧٦-٧٧.

المملوكي، من ذلك قول صاحب شرف الدين الأنصاري^(١) (ت٦٦٢هـ) في الحب الإلهي^(٢):
(الكامل)

رَحَلْتُ فَكَانَ السَّدْمُ مِنْ حُلْفَائِهَا فِي جَفْنِهِ وَالشُّوقُ مِنْ حُلْفَائِهِ
وَنَأَتْ فَإِنْ تُسَقِّمُهُ كُلَّ سَقَامِهِ فَخَيَالُهَا يَشْفِيهِ بَعْضَ شِفَائِهِ

في هذه النصوص يستعمل الشاعر أسلوب (حذف الفاعل) الذي يختص به الفكر الصوفي؛ لأنه يشتغل على العاطفة الكامنة في النفس، لاسيما أن أشعار الصوفيين تحاول الولوج إلى العاطفة الدينية عن طريق لغة الغزل العذري، فكانت هذه الأبيات في الحب العذري الذي يكون مرآة للحب الإلهي^(٣) عند الصوفيين، بدلالة الانزياح التركيبي في تعبير (رَحَلْتُ) و(نَأَتْ) الذي اشتغل على حذف الفاعل وتقديره بـ (هي)، فكان حذف الفاعل مناسباً من جهة اللفظة والصياغة والسياق؛ لأن الشاعر يريد الحب الإلهي لا الإنساني، إذ ((الفاعل ما أسند إليه عامل مفرغ على جهة وقوعه منه أو قيامه به))^(٤).

ولهذا يتورع عن ذكر الفاعل وينزاح عن المألوف ويجعله مستتراً، حتى يفتح الطريق للتأويل الصوفي والمعنى الديني المطلوب، إذ الرحيل والنأي كانت له نتائج منها (الدمع، الشوق، المرض)، وهذه النتائج تكون ملازمة للصوفي في طريق حبه الإلهي، ومعرفة أسرار اللغة ومنها (الرمز) أسهم في تشكيل هذا المعنى الديني عن طريق لغة خارجية (الحب

(١) ولد الشاعر الكبير شيخ شيوخ حماة ورئيسها صاحب شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف المعروف (ابن الرفاء) ضحى الاربعاء في الثاني والعشرين من جمادي الأولى سنة (٥٨٦هـ) وهو عربي صميم من قبيلة أوس الأنصارية، أما أبوه فهو القاضي أبو عبدالله زين الدين محمد بن عبد المحسن ، كان شرف الدين عالماً فذاً وشاعراً متمكناً درس على يده كثير من الفقهاء والقراء والعلماء توفي سنة (ت٦٦٢هـ) ، ينظر: ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري، ١٣-١٧.

(٢) ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري، ٥٣.

(٣) الحب الإلهي: هو معانقة الطاعة ومبادئه المخالفة، أي التزام الطاعات والبعد عن المنهايات، أي: إن مفهوم الحب عند الصوفية بعيد عن الغموض ويرفض الألفاظ التي ابتدعتها البعض وينحصر في حدود حب العبد لخالقه بالتزام الأوامر والبعد عن الرذائل، ينظر: محبة الله تعالى عند الصوفية، ١٠١.

(٤) المطالع السعيدة، تحقيق: طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية، الاسكندرية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ٢٥٦.

العذري)، ويستعمل الشاب الظريف^(١) (ت٦٦٨هـ) الأسلوب نفسه في وصف آثار الحب الصوفي^(٢): (الكامل)

منعتُ جفوني لَمُدَّةِ الإغفاء عَـلِقُ المني وتقسّمُ الأهواءِ
عَجَلَ الزمانُ عليّ في شرحِ الصبا بِتَشْتَتِ القُـرْبَاءِ والقُرباءِ

فنلاحظ من هذا النص أن الشاب الظريف يستعمل اللغة الغزلية أو على الأقل طريقة شعراء الغزل، ويحيل إلى المعنى الصوفي بحذف الفاعل، ففي تعبير (منعتُ جفوني) حذف الفاعل ليعبر عن معنيين: الأول: تجريد نفسه من الفاعلية أي: من القدرة على السيطرة والتحكم بالعاطفة، والثاني: تحويل الفاعل إلى معنى خفي يرتبط بالحب الإلهي الذي يكون بين العبد وربه سبحانه.

ولهذا يقول ابن يعيش ((واعلم أن الفاعل في عرف النحويين هو كل اسم ذكرته بعد فعل، وأسندت إليه، ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم، لذلك كان في الإيجاب والنفي سواء، وبعضهم وصفه بأنه كل اسم تقدمه فعل غير مغير عن بنيته))^(٣)، إذ النوم ولذته غادرت الشاعر في إحالة إلى الانشغال والانزعاج والتعبد والمناجاة، على الرغم من عدم التصريح بالفاعل وتركه خاضعاً للاستنتاج والاستنباط فكان تقدير الفاعل بـ(هو) أي: الحب الإلهي

(١) شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن شمس الدين علي بن عبدالله ابن علي بن يس العابدي التلمساني، قد غلب عليه لقب الشاب الظريف فأصبح لا يعرف إلاّ به وكان والده عفيف الدين من العلماء الأعلام والأدباء الصوفية البارزين، ولوالده التلمساني مؤلفات قيمة، منها: شرح فصوص الحكم لمحي الدين بن عربي، والمواقف، والكشف والبيان في معرفة الإنسان، وهو شرح القصيدة العينية لابن سينا، وشرح منازل السائرين للهروي، وله ديوان شعر طبع في مصر سنة ١٣٠٨هـ، توفي الشاب الظريف سنة (٦٦٨هـ)، ينظر: ديوان الشاب الظريف، ٣ وما بعدها.

(٢) ديوان الشاب الظريف، ٢٨.

(٣) شرح المفصل، ابن يعيش، ٧٥/١.

الذي أسر قلبه وروحه وانشغل به، وفي موضعٍ آخر يقول البوصيري^(١) (ت٦٩٥هـ) في الحب المحمدي الشريف^(٢):

(البسيط)

نَجَلُ الْأَكَارِمِ وَالْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يَهْمُ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْامِ الطَّوْلُ وَالطَّوْلُ
سَرَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَعَادَ بِهِ لَيْلًا بَرَقَ يَبَارَى الْبَرَقَ هَذَا لَوْلُ

يظهر في هذا النص القائمة على المديح النبوي الشريف، أن المعنى الصوفي كان يحتاج إلى الانزياح التركيبي بحذف الفاعل، ففي تعبير (سرى إلى المسجد) اشتغال على الصورة الذهنية عند المسلمين بشكل عام؛ لأن حذف الفاعل وتقديره بـ(هو) لا يضيف غموضاً على النص.

إذ كل المسلمين يعلمون أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قد سرى ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فتجاوز ذكر الفاعل لعلمه بتحقيق معرفته وشهرته من باب الإيجاز والفصاحة، والفعل (سرى) يحيل إلى الحركة والانتقال من مكان إلى آخر ويشكل القرينة.

إذ لابد ((أن تكون هناك قرينة، ولولا القرينة، لكان الحذف نقصاً وعبثاً، ولا بد مع القرينة من محسنات ودلالات ترجع على الذكر))^(٣)، وكأن الشاعر يُشرك المتلقي في صناعة النص، فيذكر الفعل ويترك الفاعل عند المتلقي ليقدره ويشير إليه ويجعل له صورة في الكلام، وفي الوقت نفسه يشكل علاقة الإظهار والإضمار بين الفعل وفاعله، ويقول الإمام ابن حجر

(١) محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري شرف الدين أبو عبدالله، شاعر حسن الديباجة مليح المعاني نسبتته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر أمه منها وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون ومولده في بهشيم من أعمال البهنساوية ووفاته بالإسكندرية سنة (٦٩٦هـ)، معجم تراجم الشعراء الكبير، يحيى مراد، ٤٤٤.

(٢) ديوان البوصيري، ٢٣٤.

(٣) اختلاف النحاة في قضايا الفاعل ودلالته وحلوله من خلال القرآن الكريم واللغة، ٧٦.

العسقلاني^(١) (ت ٨٥٢هـ) في الحب الإلهي مستعملاً أسلوب حذف الفاعل^(٢): (الوافر)

هوىً فيه الملامة كالـهواءِ فلا يُطمع لناري في انطفاء
أعادل إن نارَ الشوق تذكو ولم يُخمد تلهبها بكائي

ففي هذا النص يعمد الإمام ابن حجر إلى التعبير عن عاطفته الدينية بطرب الحب العذري ولغته الساحرة، فيلجأ إلى حذف الفاعل على طريقة الصوفية، ليجعل المعنى أكثر فاعلية، وفي الوقت نفسه أكثر إثارة وجمالية.

لاسيما أنه يستعمل ألفاظاً تتعلق بالحب العذري في تعبير (هوىً فيه الملامة)، إذ يصرح بالفعل (هوى) ويعمد إلى الانزياح التركيبي فيحذف الفاعل ويشير إليه من خلال قرينة (الملامة) فيجعل الفاعل مقدرًا بـ(هو) أي: الحب الإلهي الذي يحركه ويشغل نفسه ويسبب له كل النتائج التي تصيب المحبين والعشاق، فكانت تعبيرات (اللهب، ونار الشوق، والانطفاء) صورة متوازية بين الحب الإلهي ونتائجه والحب العذري ونتائجه.

فكلاهما قائم على العذاب واللذة والفرق واللقاء والقرب والبعد؛ كل هذه المعاني بغياب التصريح بالمسبب (الفاعل)، إذ الفاعل يحذف أحياناً ((للمحافظة على السجع في النثر وعلى الوزن في الشعر، أو أن الفاعل معلوم))^(٣)، فلو ذكر لكان المعنى عادياً ليس ظاهراً ومضمرًا بحركة معنوية عنيفة تحفز المتلقي وتشركه في تأويل النص ومعناه.

ج- حذف المفعول به:

إن حذف المفعول به من الأساليب التي تستعمل في النحو العربي، فقد قال ابن عقيل عن طبيعة هذا الحذف: ((المفعول به فضلة، وهي خلاف العمدة، فالفضلة: ما يمكن الاستغناء عنه كالمفعول به، فيجوز حذفه إن لم يضر، فإن ضر حذف الفضلة لم يجز حذفها، كما إذا وقع المفعول به في جواب سؤال نحو أن يقال: من ضربت؟ فتقول: ضربت زيداً، أو محصوراً نحو: ما ضربت إلا زيداً، فلا يجوز حذف زيداً في الموضعين؛ إذ لا يحصل في الأول جواب، ويكون الكلام الثاني دالاً على نفي الضرب مطلقاً، والمقصود نفيه

(١) أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد أبو الفضل ابن نور الدين أبي الحسن بن القطب أبي القاسم بن ناصر الدين بن جلال الدين الكنائي العسقلاني المصري القاهري الشافعي وكنيته أبو الفضل ولقبه شهاب الدين وابن حجر لقب لبعض آبائه، ولد في عام (٧٧٣هـ)، ارتحل شيخ الإسلام إلى الشام والحجاز وسمع على كثير من الشيوخ المعروفين بعلمهم، له أكثر من عشرة مؤلفات، توفي في الثامن عشر من ذي الحجة سنة (٨٥٢هـ)، ينظر: ديوان ابن حجر العسقلاني، ٢٣ - ٣٠.

(٢) ديوان ابن حجر العسقلاني، ١٢٠.

(٣) الحذف والتقدير رؤية في الأسلوب القرآني، ٩٥.

عن غير زيد فلا يفهم المقصود عند حذفه))^(١)، وحذف المفعول به من الطرق الصوفية في التعبير عن معاناتهم، وفي الوقت نفسه عدم التصريح بمن وقع عليه العذاب والمعاناة، وهذا جزء من التخفي الذي يستعمله الصوفي، وقد ورد حذف المفعول به في الشعر الصوفي المملوكي، ويصف ابن الخيمي^(٢) (ت ٦٨٥هـ) المعاني الصوفية مستعملاً حذف المفعول به^(٣):
(الطويل)

كَلَفْتُ بِبَدْرِ فِي مِيَادِي الدُّجَا بَدَا فَعَادَ لَنَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَمَا بَدَا
وَحَجَّبَ عَنَا حَسَنَهُ نَوْرُ حَسَنِهِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالهُدَى

يستعمل ابن الخيمي في هذا النص الصوفي الانزياح التركيبي، فيصف جمال الحب الإلهي، معتمداً على فاعلية حذف المفعول به، ففي تعبير (كَلَفْتُ بِبَدْرِ) و(فَعَادَ لَنَا) و(وَحَجَّبَ عَنَا) أفعال متعدية اقتصرت على وجود الفعل والفاعل وغياب وحذف المفعول به، قال ابن الزملاكي (ت ٦٥١هـ): ((عساك تقول: الحذف محل بفائدة المحذوف، وتغفل عما للإيهام والإيهام من التخييم والإعظام ورب صمت أفصح من الكلام))^(٤)، وهذا الانزياح في حذف المفعول به يحيل إلى فكرة الفناء^(٥) أو الغياب أو التلاشي التي تصيب الصوفي في لحظة الشوق والوجد والمناجاة.

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ٤٩٢/١-٤٩٣.

(٢) محمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري اليميني ولد على الاغلب في عام (٦٠٢هـ) والده محمد أبو العدل يوسف بن محمد بن المنعم عبد الدين تقي الشيخ الأنصاري المصري الخيمي الشافعي كان لابن الخيمي دكان يعمل فيه بصناعة الخيم وقد نسب إلى هذه المهنة وصار يلقب بالخيمي، لبس ابن الخيمي زي الصوفية على يد الشيخ شهاب الدين السهروردي توفي سنة (٦٨٥هـ)، ينظر: ديوان شهاب الدين ابن الخيمي دراسة وتحقيق، ٩-٣٤.

(٣) ديوان ابن الخيمي، ٢٩٥.

(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ٢٣٧.

(٥) الفناء: الفناء والبقاء إسمان، وهما نعتان لعبدٍ موحد، يتعرض الارتقاء في توحيده من درجة العموم إلى درجة الخصوص، ومعنى الفناء والبقاء في أوائله، فناء الجهل وبقاء العلم، وفناء المعصية ببقاء الطاعة، وفناء الغفلة ببقاء الذكر، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله سبحانه وتعالى في سابق العلم، وأيضاً الفناء فناء العبد عن وجوده يكون بروية جلال الحق وكشف عظمته، حتى ينسى الدنيا والعقبى في غلبة جلاله، ينظر: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ٧٣٠-٧٣٢.

ولهذا كان التصريح بالفعل والفاعل ووأد المفعول به، باعتبار أن الصوفي لا يعدّ لوجوده شأن في حضرة الحب الإلهي ونتائجه على النفس المحبة، فطبق الشاعر الفكرة القائمة على أن المفعول به فضلة يمكن حذفها إذا خدمت المعنى، فكان الحذف محققاً للمناسبة بين المعنى الصوفي والمعنى النحوي.

ويلجأ محمد وفا الشاذلي^(١) (٧٦٥هـ) إلى نفس الطريقة مستعملاً حذف المفعول به^(٢):

(الطويل)

وَيُشْغَلُ بِالْأَحْوَالِ طَوْرًا نَفْسُهُمْ وَطَوْرًا مِنْ الْأَقْوَالِ يُسْكَنُهُمْ سَجْنًا
وَحَقَّقَهُمْ بِالْحَقِّ وَحُدَّةً ذَاتِهِ وَرَتَّبَ فِيهَا الْفَرْدَ بَيْنَ الْفَرْقِ وَالْمَثْنَى

في هذا النص يعمد الشاعر إلى المغايرة التي تكون باستعمال طريقة الظهور والاختفاء أو الحضور والغياب أو الخفاء والتجلي، لاسيما أن النص يريد نقل صورة وتكوين فكرة قائمة على الحب الصوفي فضلاً عن النتائج المترتبة عنه.

فلجأ إلى تعبير (وَيُشْغَلُ بِالْأَحْوَالِ) ليشغل على الجملة اللازمة بحذف المفعول به، فيكون حذف المفعول به في هذا الموضع وتأخيره إلى تعبير (نَفْسُهُمْ) التزاماً بالثنائية في غيابه ثم حضوره والنفس كانت القاعدة لهذه الثنائية، يقول الرضي الاسترابادي (ت٦٨٦هـ): ((والأقرب في رسم المفعول به أن يقال: هو ما يصح أن يُعبر عنه باسم مفعول غير مقيد مصوغ من عامله المثبت، أو المجمعول مثبتاً))^(٣)، فعندما كان حضوره زيادة وغير ذي قيمة في حضور الثلاثي والوجد الذي يفرضه الحب الصوفي لم يأت بالمفعول به، وعندما أراد ذكر العذاب الذي يجلبه الحب ذكر المفعول به، وهو النفس التي تتأثر به وتخضع له،

(١) هو محمد بن محمد والكنية أبو الفضل أو أبو الفتح مالكي المذهب وشاذلي الطريقة أصله مغربي ولد في الاسكندرية عام (٧٠٢هـ) ونشأ بها ، سلك طريقة أبي الحسن الشاذلي حصل له قبول عند اعيان الدولة فتحول إلى القاهرة فذاع صيته واشتهر إلى أن توفي فيها سنة (٧٦٥هـ)، ينظر: ديوان محمد وفا الشاذلي، ٨-٩.

(٢) ديوان محمد وفا الشاذلي، ٥٨.

(٣) شرح الكافية، ٣٠٣/١.

وفي موضع آخر يقول ابن الوردي^(١) (ت ٧٤٩هـ) في وصف الحب المحمدي^(٢): (الكامل)

مَنْ رَامَ يَحْصِي مَعْجَزَاتِ مُحَمَّدٍ فَيَعِدُّ مَوْجَ الْبَحْرِ حِينَ تَمَّوْجَا

مَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي أَوْصَافِهِ أَنَا قَاصِرٌ عَنِ مَدْحِهِ مَتَلْجِجَا

نلاحظ في هذا النص أن الشاعر يعمد إلى الانزياح بحذف المفعول به، لاسيما أنه يصف الحب المحمدي ومعجزات الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، والحب المحمدي من أخص خصوصيات الصوفية، فقد كانت الحلقات الصوفية تقوم على التغني بهذا الحب ويجتمع الناس بها من كل حذب وصوب.

ففي تعبير (مَنْ رَامَ يَحْصِي) و(مَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ) لم يتطرق لذكر المفعول به، واكتفى بذكر الفاعل؛ لأن المفعول به معلوم ومعروف وهو المحب الصوفي، الذي يبحر في المعجزات المحمدية ويسعى لنقلها للمجتمع، وهو ما حذف فيه المفعول به لفظاً ولكنه مراد معنى وتقديراً، وهو الذي أطلق عليه النحويون الحذف اختصاراً، ولا يحذف إلا بدليل، وإنما حذف لضرب من التخفيف والاختصار^(٣)، ولهذا لم يتعرض لذكر المفعول به واقتصر على نقل الصورة الصوفية بكل تفاصيلها ومؤثراتها على النفس والشخصية، وعليه ((يعدّ حذف المفعول به فضيلة في الكلام، لما يحققه من الإيجاز والتكثيف والاقتصاد في القول، والبعد عن الإسراف))^(٤).

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري بن الوردية يلقب بزينة الدين ويكنى بأبي حفص، ولد ابن الوردية سنة إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة النبوية بمصر النعمان بسورية ومنها جاءت إليه نسبة المعري، له كثير من المصنفات في شتى المجالات، ولي قضاء منبج وهو من فقهاء المذهب الشافعي، توفي ابن الوردية في السابع عشر من ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية ومات مطعوناً في الطاعون لعام بجلب، ينظر: ديوان ابن الوردية، ٧- ١٢.

(٢) ديوان ابن الوردية، ١٨٣.

(٣) ينظر: المفصل في علوم العربية، ٤٧.

(٤) ظاهرة حذف المفعول به: دراسة وصفية إحصائية تحليلية- نماذج من القرآن الكريم-، ٢٨٠.

الخاتمة

- ١- كان الانزياح على مستوى التركيب محققاً للمعاني الصوفية، ففي الحذف يشتغل الشاعر بحسب هدفه من النص فيظهر تركيباً ويخفي آخر، وفي التقديم والتأخير يقدم التركيب الذي يريد تحقيق معناه أولاً في ذهن المتلقي، ثم يؤخر ما كان ثانياً على مستوى الأهمية المعنوية.
- ٢- كانت انزياح مكملات السياق وبالتحديد الجملة بأنواعها حاضرة في تشكيل المعاني الصوفية، إذ استعملها الشعراء بحسب المقاصد، فالجملة المنفية مثلاً تخدم الصوفي في اثباتها معانٍ والتركيز عليها، ونفيها معانٍ أخرى والتأكيد على نفيها، لاسيما أن الفكر الصوفي بقي يصارع محاولاً إثبات نفسه في المجتمع المملوكي.
- ٣- شكل الانزياح البياني القائم على الاستبدال عنصراً مهماً وأساسياً في المعاني الصوفية، إذ التشبيه اشتغل على القرينة لغرض تقريب المعنى، والاستعارة اشتغلت على المبالغة في المعنى، وعندما يحتاج الشعراء إلى الإيماء والإشارة تكون الكناية فعالة في إيصال معانيهم الصوفية.
- ٤- كان الرمز فعالاً في القصيدة الصوفية، إذ تكون جسراً للعبور إلى المعاني التي يريدونها، فوصفوا الجمال والحب الإلهي بمعاني الحب العذري حتى تكتسب معانيهم شعبية واستمالة للمجتمع، وتكون قريبة ومحبة للنفس، وهذه من السمات الأساسية لنصوصهم.

ثبت المصادر

- ❖ اختلاف النحاة في قضايا الفاعل ودلالته وحلوله من خلال القرآن الكريم واللغة، د. أبو سعيد عبد المجيد، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج ٥، ع ١٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ❖ الانحراف مصطلحاً نقدياً، موسى رابعة، مؤسسة البحوث للدراسات، مج ١٠، ع ٤٤، ١٩٩٥م.
- ❖ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ❖ بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- ❖ الجملة الفعلية بين النحو والدلالة دراسة تطبيقية في ديوان المتنبّي، إعداد: معرف إيمان، إشراف: بودوخة، الجمهورية الجزائرية، جامعة العربي بن مهدي - أم البواقي، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- ❖ الحذف والتقدير رؤية في الأسلوب القرآني، عبد الكريم خالد التميمي، جامعة البصرة، كلية القانون، مجلة آداب البصرة، ع ٥١، ٢٠١٠م.
- ❖ الدرر الكامنة في أعيان المائة الكاملة، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: سالم الكرنوكي، دار الجيل، بيروت.
- ❖ ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ❖ ديوان ابن حجر العسقلاني، تحقيق ودراسة: فردوس نور علي حسين، دار الفضيلة، القاهرة.
- ❖ ديوان ابن نباتة المصري الفاروقي (ت ٧٦٨هـ)، الناشر: محمد القليلي، دار التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ❖ ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- ❖ ديوان الشاب الظريف، حققه وأعد تكمّلته وفسر ألفاظه: شاكر هادي شكر، مطبعة النجف، النجف الأشرف، ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.
- ❖ ديوان صاحب شرف الدين الأنصاري، تحقيق: عمر موسى باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

- ❖ ديوان تقي الدين السروجي ديوانه وما تبقى من موشحاته، جمع وتحقيق ودراسة: نبيل محمد رشاد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ❖ ديوان عفيف الدين التلمساني، تحقيق: يوسف زيدان، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١م.
- ❖ ديوان محمد وفا الشاذلي، تحقيق ودراسة وشرح: مهدي أسعد عرار، جامعة بيرزيت.
- ❖ الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.
- ❖ الرمز التاريخي في شعر أمل دنقل، إعداد: هاجر طيبي، إشراف: د. عبد المالك ضيف، جامعة المسيلة، كلية الآداب واللغات، الجمهورية الجزائرية، ٢٠١٣م.
- ❖ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبدالله بن عقيل العقيلي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٥هـ - ٢٠٠١م.
- ❖ شرح الكافية، رضي الدين بن الحسين الاسترابادي، تحقيق: أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
- ❖ شرح المفصل، موفق الدين بن علي بن يعيش النحوي (ت ٦٣٤هـ)، صححه وعلق عليه جماعة من العلماء، المطبعة المنيرية، مصر.
- ❖ ظاهرة حذف المفعول به: دراسة وصفية إحصائية تحليلية- نماذج من القرآن الكريم، د.عاطف فضل، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مج٩، ع١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- ❖ الفاعل وأحكامه النحوية، د. كريم عبيد عليوي، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٢٠-٢٠٢١م.
- ❖ الكتاب، أبو بشر عمر ابن عثمان سيوييه (ت ١٨٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م.
- ❖ لغة الخطاب الشعري عند جميل بثينة دراسة أسلوبية بنائية، فاضل أحمد القعود، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط١، ٢٠١٢م.
- ❖ محبة الله تعالى عند الصوفية، د. سيف الدين يوسف خشان، مجلة جامعة الأقصى للعلوم الإنسانية، مج٢٣، ع١، ٢٠١٩م.
- ❖ المطالع السعيدة، تحقيق: طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية، الاسكندرية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ❖ معجم تراجم الشعراء الكبير، يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ❖ المفصل في علوم العربية، الزمخشري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

- ❖ من دلالات الانزياح التركيبي وجماليته في قصيدة الصقر لأدونيس، د. عبدالباسط محمد الزيود، مجلة جامعة دمشق، مج ٢٣، ع ١، ٢٠٠٧م.
- ❖ موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، د. رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٩م.